حب المنطـــق

للأســـتاذ ثروت أباظه

بعد أن ظهر مقالي بالرسالة يحمل هذا العنوان ، جمعتني بالرفاق ندوة جرى فيها حديثهم حوله . قال أحدهم :

— عرضت لنا في هذا الأسبوع شخصية غريبة لم نر لها مثيلا بين المجتمع ! وقد عرض صديقك آراء عجيبة من الحب وأطلقها في جرأة تدفعها ثورة الشباب ، وإن حاول هو أن يكسوها وقار الشيوخ .

قلت : لا تنسَ أني لم أعلن موافقتي على رأيه .. وإنما عرضته متخففاً من تبعته .

— يزعم صديقك . .

— لا تناقشني .. فأنا معه على موعد هنا .

وحان الموعد ، وجاء الصديق ، وعرفوه وعرفهم ، واطمأن بنا المجلس ، ولكن لم يكد يطمئن حتى التفت إلى الصديق يكسو وجهه عتب وغيظ وقال :

— ما ذا ؟ أأصبحت تؤثر قلمك على صداقتك ؟ قلبي أفتحه لك وأنا ضنين بما يحوي ، وأنت تعلم ، فلا تعف بك الأمانة عن إظهاره للناس جميعاً . ثم لا تكتفي بذلك ، بل تعرفني بأصدقائك ، وتخبرهم أني صاحب ما قرءوه من الآراء ! هل أصبحت الأسرار ...

— هوّن عليك . إن الجالسين أصدقاء قدماء ، لم تواتني الفرصة لأعرفهم بك . ولكنني عقدة الصداقة بينكم منذ أن عرفتهم ؛ فسرك عندهم في أمان . أما أني أعرض قلبك ، فوالله ما قصدت إلى ذلك ، وإنما هي آراء جديدة لم أسمعها ، ولابد لها أن تُسمع ، ولا أحد من القراء يعرفك .

هدأ صديق بعض الشيء . وكاد أن يجري الحديث إلى غير ما كانوا آخذين فيه ، لولا أن تشجع أحد الأصدقاء وعاد إليه يقول

— الآن وقد أوضح لك صديقك مكاننا منه ومكانك منا فهل لنا أن نسألك بعض الإيضاح لآرائك . . . قلت إن للعقل عاطفة يتحكم بها في القلب فهل تعني أن القلب إذا أحب يذهب إليه العقل قائلا : لا ؟ إن هذه لا تنفعك .. إن تلك التي اخترتها لا تصلح لك ، إنها ليست من طبقتك ، فيطيع القلب ويسلم القياد ، وينحرف عما اندفع إليه وسيبحث عن غيرها ؟ ؟ إذن لا تعترف أنت بما تراه من كوارث الحب ، ثم إن هذا القلب الهادىء المستكين. كيف تجسر فترميه بأنه أحب ؟ ؟ أيحب ويقبل النصيحة ؟ ؟

قال الصديق : إن العاطفة الجياشة القوية التي يزخر بها القلب المحب هي التي تنشأ عن معرفته بالحبيبة ودراسته لها ، فلا يمكن أن أصدق إنساناً وقع في الحب منذ النظرة الأولى ، لأن الجمال وحده في هذا النوع من الحب سيكون العماد . ولو كان الأمر كذلك لأحببنا كل الجميلات اللائي يمررن بنا في الشوارع ، ولتدلهنا في ممثلات الشاشة . الحب وليد خبرة ومعرفة ودراسة . والخبرة والمعرفة والدراسة أمور يختص بها العقل وحده . والعقل يتدخل أيضاً ليعرف إذا كان صاحبه محبوباً أم لا . وعلى هذا الهدى يتجه القلب .

قال صديق آخر : لعلك محق فيما ذهبت إليه ، ولو أن الواقع لا يؤيدك .

— إن الواقع لا يؤيد هذا لأن الفكرة السائدة عند القوم أن الحب لا يكون إلا من النظرة الأولى . وذلك ما يجرهم إلى هذا الحب . إنهم يعتقدون أنهم أحبوا وهم في الواقع براء من الحب

— حسن . . ولكن ما مسألة حب المنطق هذه ؟ أإن بعدت الحبيبة أحسست بالشوق إليها في عقلك ؟ وإن خفق خافق فيك عند اللقاء أيكون ذلك الخافق عقلك ؟ كيف يتهيأ للعقل أن يحب ؟

— إنني لم أقل هذا . ويظهر أنك لم تحسن قراءة المقال .

بل إنني أرى أنه لا شيء في الإنسان يحب غير قلبه . ولكن كيف يبدأ هذا الحب ؟ بالقلب وحده ؟ أم أن العقل يتدخل في هذا الأمر ؟ إنني أرى أن العقل والإرادة يتدخلان ، حتى إذا تم الحب ، فإنهما يبتعدان كل البعد ولا رأي لهما في الأمر بعد هذا . بل إن المحب إذا أحب يفكر بقلبه .. وبقلبه وحده ، ولهذا يخشى عليه إذا كان لم يحسن الاختيار في بادىء الأمر . هذا ما أقصد إليه . لعلك فهمت . فإن لم تكن فأنت مثل صديقك هذا لا تريد أن تفهم